محاذير في ترجمة الفكر الغربي

بقلم نازك الملائكة

الترجمة ، من وجهة النظر الاجتماعية ، ضرب من الصلة بين مجتمع ومجتمع ، تتيح للمترجم فرصة يحتك فيها ذهنه بذهن أجنبي له ظروف يختلف بها عن الذهن الاول . وكلما كان الفارق بين الظروف اكبر كانت المادة المترجمة اشد اثارة واعمق أثرا في اذهان القراء وارواحهم . ومن شأن الامم المتحضرة ان تلتمس المعرفة وسعة الفكر ، فهي تقبل على قراءة آداب الامم الاخرى وفلسفاتها ، ملتمسة فيها وجهة نظر جديدة تستعين بها على حياتها ، ووسائل تعبيرية توسع آفاق لغتها وفكرها .

وقد كان من مظاهر الانبعاثة العظيمة التي انتفضت بها الامةالعربية في هذا القرن ، اننا اقبلنا على الترجمة سواء آمن الغرب ام من الشرق من آداب الهند والصين وحكمتهم . علما ان الغالب علينا اليوم هو النقل عن الغرب بحيث باتت المترجمات الاوربية والاميركية تغرق مكتباتنا واسواقنا ، وما زال هذا التيار يشتد ويتلاطم حتى بات علينا ان نتأمله ونرقبه .

وأول ما نحب ان نقول ان حماستنا في ترجمة الفكر الغربي أمر لا تنقصه المبررات : ان الغرب الذي سبقنا الى التطور الحديث قد خاض قبلنا في كثير من القضايا الفكرية الجديدة والمسائل الاجتماعية المعاصرة وغيرها مما نتعرض الى ان نخوضه في بلادنا ، ولذلك نستطيع ان نفيد من تجاربه في مجابهة بعض قضايانا المشكلة . غير ان فيموقفنا من هذه الترجمة محذورين خطيرين قد نقع فيهما ان لم ننتبه .

(اولهما) ان بعضالمترجمين يتخذون مما يترجمونه موقفا ضعيفا فيه هوان واستخذاء، فيفترضون فيقرارابهم ان الامة التي تحتاج الىالترجمة، هي بالضرورة أضعف شخصية وفكرا من الامة التي تترجم عنها فكأنما الحاجة الى الترجمة قرينة النقص الفكري وضحالة المعرفة . ولا يخفى ان هذا موقف مغلوط يسيء الى اية ترجمة تنقل الى لغتنا ، لاننا ندرك ان الامم تتباين في التفكير والتعبير ، وتختلف في الاتجاه والمعتقد ، ومن ثم فان قراءة آداب الامم الاخرى تلمس اذهاننا لمسة الايحاء ، وتشق لنا دروبا جديدة من المعاني . ولا نظن الامة التي ينقصها الفكر المحلي الناضج تنتفع بالترجمات ، وانما تقع في التقليد والنسخ والمحاكاة فيمسخ ذلك شخصيتها ويضيع مكانتها .

وقد يكون من المفيد ، في مداواة هذا الاحساس ، ان نتذكر ان الغرب الذي يعطينا فكره انما رد الينا اليوم بعض ديونه القديمة المتراكمة . فكم قد اخذ في غابر القرون عن ابن سينا وابن الهيثم وابن رشد ، والغزالي والمعري وابن خلدون وسواهم من اعلام الفكر العربي. ثم ان حاجتنا العربية المعاصرة الى دراسة الفكر الغربي لا تكاد تقل عن حاجتنا الى دراسة الفكر العربي ، فانما نحن متأخرون لاننا هبطنا عن مستوانا العربي نفسه . وان المرء ليحزن حين يدرس تاريخ الفكر العربي والمستويات الثقافية العالية التي بلغها ، ويقارنها بما نحن عليه اليوم من خمول وضحالة .

والمحذور (الثاني) ان اعجابنا الشديد بالفكر الغربي قد يشل قدرتنا على تمييز ما ينفعنا مما يضرنا . فنترجم كل ما يكتبون ونتخذ من المواقف والفلسفات ما يتخذون بمعزل عن حاجتنا وظروفنا . ومنشأ هذا المحذور انبهارنا بمدنية الغرب الالية ، فما نكاد نتأمل صواريخه واقماره وكشوفه العلمية الجبارة حتى نتخيل ان أخلاقه توازي علومه ، وان مبادئه لا تقل روعة عن مستواه العلمي ، وان شخصيته ارفع من شخصيتنا ، ولذلك ينبغي لنا ان نأخذ بكل ما يقول ويعمل.

ولقد سادت في بعض اوساطنا المبهورة بالغرب فكرة مضمونها أن كون الامة العربية تعيش عصرا واحدا مع الغرب يجعل من الممكنوالمعقول ان نكتب باساليبهم ونعتنق آراءهم ونستعمل احكامهم الادبية في نقد آثارنا . وهذه النظرة على ما فيها من جانب مصيب ، تتجاهل ان لكل أمة شخصية وطبيعة واسلوبا ، وان مرجع ذلك الى تواريخ سحيقة في القدم عاشتها الامم وتكون خلالها ارثها من الدم والروح واللغة .

ان هذه الحقيقة تتحكم فيما ينبغي ان يكون عليه موقفنا من الفكر الغربي المترجم . فكل فرق في الشخصية والتاريخ بيننا وبين الغرب ينتج الزاما بالحذر من أن يجرفنا الفكر الذي ينتجه . ولسوف ندرس فيما يلي هذه الفوارق القائمة بيننا وبين الغرب ، وهي ـ كما سنرى ـ تحد استفادتنا من انتاجه وقد تجعله مضرا بنا أشد الاضرار احيانا .

١ ـ فارق الاتجاه الحضاري

كان الشعب العربي ، منذ أقدم العصور يمثل اتجاها حضاريا يختلف عن اتجاه الغرب . ولعل الوصف الصادق لنفسيتنا هو « الروحانية والتأمل والخشوع » بينما يتصف الغربي عموما « بالمادية والحسية» . وفي وسعنا أن نلاحظ هذا الاتجاه الغربي منذ بداية التاريخ المعروفة . فاليونانيون القدماء مثلا ، في عهد هوميروس ،كانوا لا يشغلون بالهم بالاخلاق وانما يعيشون الحياة دون تحفظ او تقيد . يدل على ذلك أنهم ابتدعوا لانفسهم آلهة ترتكب الشر والخير معا ولا تعرف بينهما فرقا او ـ على حد تعبير الفيلسوف الفرنسي جان ماري كويو في كتاب له (١) : ان الطبيعة لا ترى في الخير والشر تضاربا ولا تعارضا ، وانما هما عندها ، مثل الحرارة والبرودة ، كلاهما درجة فيالمحرار الاخلاقي ، وكلاهما ضروري لان الواحد منهما يوازن الثاني في الخليقة » . وانما كان الاغريق يقدسون الحياة كلها ، فكل ما فيها يرتفع عندهم الى مرتبة الالوهة سواء أكان خيرا ام شرا ، كما يقول نيتشه . (٢) ويتضح هذا المعنى في ما نراه لهم من صور وتماثيل تشير الى تقديس الجسد والانطلاق من قيود الاخلاق .

ولو درسنا الفلسفات الاوربية الحديثة لوجدنا اغلبها مشوبا بلمسة الاتجاه المادي ، ويشاهد أثر ذلك حتى لدى الفلاسفة المتدينين مثل القديس اوغسطين ، فلعل اي قارىء لاعترافاته يلاحظ المسحة الحسية العنيفة في حبه لله وأثر العاطفة الارضية في مناجاته له ،فهو يصف الله بانه زوج الانسانية . وتعبر الفقرة التالية عن مجمل شكل هذا الحب الذي يكنه اوغسطين للخالق : « حين احب الله فانا انما أحب الضياء والنغم والعطر والطعام والعناق . وانه لضياء لا يمكنان يسلبني اياه زمان ، وعطر لا تستطيع رياح ان تبدده ، وطعام لا ينقص مهما أكلت منه وعناق أرقد فيه فلا يوقظني منه ارتواء . ذلك ما أحب

---

(١) ترجمة شخصية عن كتاب غويو A sketch of Morality Indipendet of Obligation or Sanction

وهو مترجم ترجمة رائعة الى العربية بقلم الاستاذ سامي الدروبي والمؤسفني الا تكون ترجمته بين يدي الان .

(٢) كتاب نيتشه الممتع The Birth of the Tragedy From the Spirit of Music وهو فيما اعلم غير مترجم الى اللغة العربية

حين احب الله » (١) .

كل هذا يشير الى موقف حسي من الذات الالهية يخالف موقفنا في الوطن العربي حيث نعتقد الا شيء يقربنا من الله مثل التأمل الخالص المنزه عن تأثيرات الحواس . اننا نلمح الزهد والحكمة والتأمل حتى في شعر العرب الذين مجدوا الخمر وعالم الحواس مثل طرفة بن العبد . وما يلبث اللاهون الممعنون في المجون حتى يتوبوا تتحدر دموع الندم على خدود كهولتهم مثل ابي نواس .. فكأنما النفس العربية بطبعها متأملة خاشعة فما تكاد تنطلق حتى تعاودها نزعتها الفطرية . ومع ان الصوفيين في الادب العربي لا يمتنعون عن مناداة الله بالنجوى الحسية ، غير ان كل حسية لديهم انما هي رمز لمعنى روحاني . فهم يتحدثون ـ كما يقول ابن الفارض ـ عن « معنى وراء الحسن » (٢) ونحن نعلم من مطلع التائية الكبرى ان الحبيبة التي ترمز الى الله ذات محيا « يجل عن الحسن » . والعقيدة العامة لدى العربي ان الحواس بنهمها وضجيجها ، تشغل الذهن عن الارتقاء ، ولا يتم ادراك الله تعالى من دون ارتقاء . ولسنا وحدنا في هذه النزعة فان الشرق كله يكاد يشاركنا اياها . وكل من يلم بفلسفة «يوغا» في «الباغافادغيتا» Bagavad-Gita الهندية يدرك انها تنتهي الى مثل ذلك لا بل انها تزيد عليه زيادات قاسية من الرياضة الروحية تهدف كلها الى تطهير النفس من سطوة الحواس .

ولعله ثابت ان الفرد العربي ، مهما قل نصيبه من العلم والثقافة ، يمتلك في اعماقه حسا صوفيا يمنحه خشوعا دائما امام الله والحياة والغيب . ومن مظاهر ذاك ايمانه بالرؤيا وتأويلها ، وبالدعاء وآثاره ، وبعالم الروح وخلود الموتى . كما يتميز العربي بانه يذكر الله في حياته اليومية كثيرا . وقد تركت النزعة الروحية آثارها في تاريخنا قديما وحديثا ، وهو امر لا نكاد نجد له مثيلا في كتب الغرب .

بعد هذا العرض العاجل للروحية العربية والمادية الغربية يصبح واضحا ان ترجمة الفكر الغربي الى لغتنا ينبغي ان تتم في كثير من التحفظ ، لا لاننا نخشى ا ن نهدم طبيعتنا ، فان طبائع الامم لا تهدم قط ، وانما لان انبهارنا بمدنية الغرب يستطيع ان يجعلنا نتيه فنتمرد على طبيعتنا كما يتمرد صبي غر ، وبذلك نضيع فترة من الزمن حتى نرجع الى انفسنا . ولسوف نكتشف يوما بعد يوم ان طبيعتنا هي ضمان ابداعنا لمجرد انها طبيعتنا والمرء لا يبدع الا في حدود طبيعته . هكذا ابدع العرب بالامس ، وهكذا تبدع اوربا اليوم . ونحن ، في الوطن العربي نحتاج اليوم الى كل لحظة من حياتنا ، فلا ينبغي ان نبدد شيئا في الضياع والتيه .

٢ ـ فارق الموقف الاجتماعي

تبدو لنا محاذير الاندفاع في ترجمة الفكر الغربي الى اللغة العربية اشد واخطر حين ندرس الفرق الظاهر بين الموقف الاجتماعي الذي تقفه الامة العربية والاخر الذي يقفه الغرب . وينشأ ذلك الفرق بدءا عن ان الغرب يقف في نقطة من تاريخه الفكري والحضاري تختلف عن النقطة التي نقف فيها نحن اختلافا ملحوظا . فقد بلغ الغرب مرحلة النضج الحضاري منذ قرون ، وعرف هذه المدنية الحديثة معرفة مباشرة ، وعاش مراحلها النامية عيشة متدرجة على مدى مئات السنين . ولذلك فان المدنية المعقدة المعاصرة لم تفاجيء الغربي كما فاجأتنا وانما لاحت له دائما قضية بديهية يعيشها كما عاشها آباؤه واجداده . لقد ولد فوجد المدن الشامخة مبنية حوله ، والقاطرات تزحف تحت الارض ، والكشوف العلمية قائمة وان زادت نضجا مع السنين . كما وجد امامه مجتمعا كاملا عريقا في نظمه وآدابه وثقافته .

كل هذا يخالف موقفنا في الوطن العربي حيث جاءتنا المدنية تركض ركضا اشبه بموجه جبارة من امواج بحر عظيم . ولقد كان لهذا الاختلاف بين الغرب وبيننا في ملتقى المدنية الحديثة نتيجتان مهمتان :

(الاولى) ان الفرد الغربي باعتباره لمدنيته ، يفقد نشوة المفاجأة واللذة التي يجدها الفرد العربي . يرى الغربي مدنيته شيئا طبيعيا مألوفا بينما نراها نحن باهرة سحرية الجمال بما تجدد من حياتنا ومجتمعنا . ان مفاجأة الانتقال من البدائية الى المدنية قد احدثت في الارض العربية هزة حياة عظيمة . فكأننا أرض حية اقفرت واجدبت قرونا ثم أفاقت فجأة على انهمار سيول متلاحقة من مياه باردة منعشة تفلفلت في كل شبر منها فتفجرت لمرورها الخصوبة النائمة . او كأننا موجة بلغت قراراتها السفلى واستجمعت قواها جميعا لقفزتها التالية .

وهكذا نجد المجتمع العربي اشبه بعملاق سليم البنية نام طويلا واستجمع قواه ، حتى اذا أفاق وفتح عينيه وجد حوله فجرا عذب الجمال يمتد ويغمر الدنيا . انه يحس في اعماقه فرحا مائجا ويستشعر رغبة جارفة الى ان ينهض ويعمل ويعيش ملء حياته . وهو في موقفه هذا يختلف عن المجتمع الغربي الذي الف مدنيته فلا مفاجأة تسحره ولا يقظة تهزه فهو يعيش في برودة وسأم .

والنتيجة (الثانية) هي ان الفرد الغربي الذي بلغ ذروة مدنيته قد فقد الهدف العام الكبير الذي نمتلكه نحن . انه يولد فيجد المدن قد بنيت وقامت حوله . لقد بناها له اجداده فوجدها جاهزة بمعاملها واحيائها ومدارسها ودوائرها وانظمتها . فكانه جاء الى الوجود متأخرا او هكذا يحس . ويجعله ذلك كله يفتقد الشعور بقيمته في المجتمع . فالمدينة الجاهزة تفرض عليه سطوتها وسيطرتها وتبدو له جبارة ظالمة مبهمة . ويعرف قراء الادب الغربي المعاصر كيف يحس الفرد هناك نحو المدينة التي يعيش فيها فهو يسميها عدوة ويصفها بالقبح والفجور ويرى نفسه بين يديها حيوانا صغيرا ضعيفا لا حول له ولا قوة .

واما نحن فان حياتنا العربية تمنحنا اهدافا شاسعة نتعطش اليها ونسعى بحيث لا يبقى لنا فراغ . ان مدينتنا يافعة تنمو وتستقي الضياء من الشمس ومن سواعدنا المتعطشة للعمل ، والوجود بين ايدينا خام يسألنا ان نعيش ونبني ونزدهر . ان حولنا مئات من القفار العربية المشتاقة الى السواعد العاملة وعلينا ان نسقيها ونزرعها خضرة ومدنا وحضارة . يضاف الى ذلك ان ديارنا ترزح تحت وطأة الاستعمار البغيض ، واسرائيل تقوم في قلب أراضينا وذلك وحده يعطينا من الانشغال والعمل ما يملأ حياتنا ويغنيها خلافا للغربي الذي حقق استقلاله منذ أزمنة بعيدة وبذلك فقد الهدف الكبير وامتلك مكانة فراغا وترفا وحياة لينة ما يلبث حتى يسأمها ويحس رتابتها وجدبها . ان خيرات الوطن العربي ، مما يسرقه الاستعمار ، ما زالت تتدفق على أفراد غربيين يملكون كثيرا من المال والفراغ وقليلا من الاهداف . فلا عجب في ان تنهار نفسية الفرد الغربي ، ويطبق الظلام على المجتمع هناك كما يصور لنا الادب الغربي المعاصر . ان علماء الحضارة والسلالات يقررون مبدأ عاما ثبتت حكمته هو ان الشعب الذي يفرغ من الكفاح ويخلد الى البطالة والترف ينتهي الى الزوال . والعرب يقولون ان الفراغ مفسدة . وقديما شخص الرسول الكريم هذا المعنى فقال لامته « اخشوشنوا فان الترف يزيل النعم » .

وينعكس احساس الفرد الغربي هذا في انتاجه الفكري والادبي وهو كله تقريبا من شعر وقصة ومسرح ونقد وفلسفة وفنون ، كله يعكس اليوم اليأس والغيظ والتشاؤم والرعب ، فكأن الفرد قد استنفد حيويته وصار الى القنوط والذبول . وليس « غثيان» جان بول سارتر الصورة الوحيدة لما نقول ، فقد تبعه وقلده مئات في الغرب . ومن هذه الصور كلها تستنتج ان العرق العام وراء الفكر الغربي المعاصر هو

---

(١) ترجمتي عن كتاب
The Confession of St.. Augestine
ولا اظنه مترجما الى العربية

(٢) بيت ابن الفارض : ومعنى وراء الحسن فيك شهدته
به دق عن ادراك عين بصيرتي

(٣) مطلع التائية الكبرى :
سقتني حميا الحب راحة مقلتي
وكأسي محيا من عن الحسن جلت

ان الانسان وحيد في الوجود ، وان حياته عبث لا طائل وراءه ، فخير ما يمكن ان يصنعه ان يموت . ونجد في رواية La Condition Humaine للكاتب الفرنسي المعاصر اندريه مالرو هذه العبارة « يستطيع الانسان ان يجد الرعب في اعماق نفسه دائما . وكل ما يحتاج ان ينظر عميقا » .

ولعل هذه العبارة تصلح مفتاحا لنفسية الغربي اليوم . انه مرعوب ، تلك هي صفته الاولى ومنها يتفرع القلق والنهم الجنسي والجريمة ، ومنها ايضا تنبع معاداة المجتمع واحتقار نظمه . ان هذا الفرد الغربي يحتقر الاخلاق فيسخر في كتبه من الرحمة والصدق والعفة والشرف سخرية وقحة يستنكرها العربي كل الاستنكار . ويزيد الغربي فيزدري الوطنية ويضحك من الاخلاص للمجتمع ويستخف بفكره الاسرة والعائلة . ولذلك نجد في رواية مشهورة لالبير كامو L'étranger ان بطلها يذهب في يوم وفاة امه ليلهو على الشاطيء مع صديقة له ، ويتحدث عن امه المتوفاة بلهجة خالية من الشعور خلوا عجيبا . وهذه النغمة قد شاعت شيوعا عظيما في ادب الغرب المعاصر لان المثل الاعلى للشخصية اليوم هو الانسان الذي لايحب أي أحد ولا يحترم أية مثل ولا يدين بأي مبدأ . ان الحب باشكاله كلها يبدو له تقييدا لحريته ، سواء اكان حبا للوطن ، ام حبا للمجتمع ، ام حبا لحبيبته او زوجة أوأم ، ام حبا للحياة نفسها . وحتى حب الله يتعارض مع حريته ولذلك نسمع « أوريست » بطل مسرحية « الذباب » لجان بول سارتر يخاطب الهه قائلا : « أنت الله، وأنا حر » .

ومن صور هذه الفلسفة في الفكر الاوربي الحديث مسرحيات لويجي بيراندييللو وهي في مجملها تقوم على احساسه بان الحياة عقدة لا حل لها وان الحقائق تزوغ ولا تثبت فلا يبقى للانسان غير ان يجن ويفقد عقله مثل « هنري الرابع » . وعندما نقرأ ج.ب.بريستلي في مسرحياته الجميلة « كورنيليوس » أو « الزاوية الخطرة » او « الزمن وآل كونري » او « أناس في عرض البحر » نخرج متشائمين كارهين للحياة . وماذا نجد في مسرحيات يوجين اونيل الاميركي ؟ انمسرحياته « الحداد يلائم أيليكترا » و « القرد ذو الشعر » و « الحوار الغريب» مملوءة بالظلام واليأس وسوء الظن بالانسان . وماذا عن آرثر ميلر وتنسي ويليامز وسواهما من مسرحيي اميركا المعاصرين ؟ ان المرء ليحس بالضيق والتشاؤم من قراءة كل هذا الانتاج المظلم المريض فكأن الغرب قد مات روحيا ولم يعد يعطي ابناءه الا المرض والفشيان والجريمة .

ومن المحزن لي أن أجد كثيرا من ادبائنا وفنانينا اليافعين المعجبين بالفكر الغربي ، يندفعون في التأثر بهذا الادب وتلك الفنون اندفاعا شديدا وبذلك يبددون مواهبهم وخصوبة اذهانهم . وطالما هزني الشوق الى ان اقرأ ادبهم بما اعرف لهم من موهبة واقتدار ، فما اكاد أبدأ حتى يصدمني الظلام والجريمة واليأس ، فاكف عن القراءة آسفة .والى هؤلاء الموهوبين اليافعين العرب اتجه بهذا البحث .

ان هذه النظرة الى الحياة ، في شطريها اللاأخلاقي والتشاؤمي ليست هي النظرة العربية ، فقد كانت العروبة منذ اقدم عصورها متمسكة بالاخلاق والمثل ، ذلك على الرغم من وجود المروق في كثير من الفترات . ولم يصبح الانحلال الخلقي فلسفة لدينا على الاطلاق ، وانما كان يعد ، حين يقع ، خروجا فاسدا على قانون المجتمع ، وسرعان ما كان المارق يزهد ويتوب مثل ابي نواس وعمر بن ابي ربيعة .

يضاف الى ذلك ان التحلل والتشاؤم وازدراء الحياة مواقف لا تلائم حياتنا العربية اليوم ، ذلك اننا لكي نبني مجتمعنا الجديد ونحرر ديارنا من عبودية الاستعمار ، نحتاج الى الاخلاق والعمل والتفاؤل . وما من شيء يستطيع ان يفسد علينا جهودنا مثل تبنينا لهذا الفكر الغربي المريض . فاذا اتخذ شبابنا نماذجه الادبية والفكرية من اعلام الغرب المعاصر مثل سارتر وموراقيا وكافكا فالى اين سننتهي ؟ اقول هذا وانا أول المعجبين بهؤلاء الاعلام ، غير ان الاعجاب الادبي لا يعني أن اتخذ مواقفهم الاجتماعية والفكرية ، وانما احب مقدرتهم الذهنية الرائعة وأساليبهم الادبية المكتملة وصورهم وغير ذلك ، وفي انتاجهم كثير ينفعني ويشحذ ذهني ، اما ما لا ينسجم مع عروبتي وحياتي فانا اقرأه في تحفظ وأقف منه موقف الناقد المحلل .

والحقيقة أن اتجاهات الكتب المترجمة عن الغرب في السنوات الاخيرة تقلقنا ، حتى اصبحنا نخشى على نفسية القارىء العربي من رشاش هذه الموجة التي تأتينا راكضة من الغرب . وقد نصف هذه الموجة « بالتبذل » ولا يعني ذلك اننا غافلون عما فيها من فكر واسلوب وثقافة . ذلك لان « التبذل » هو صفتها من وجهة نظر الامة العربية ، فليس تعنينا صفتها من أية وجهة نظر اخرى. ان لنا حاجاتنا العربية، وهي تملي علينا أحكامنا الاجتماعية وينبغي ان تمليها .

وعلينا ان نتذكر ان مترجمي هذه الكتب اكثرهم حسنو النيةوانما ينقلونها الى لغتنا لايمانهم بحرية الفكر . غير ان الذي يفوتهم ان « حرية الفكر » ليست كلمة عامة معزولة عن مصلحة من يؤمن بها . فانما تكون الامم حرة الفكر بمقدار ما تستطيع التوفيق بين مبادئها ومصالحها . واما ان تعجب الامة بالاراء التي تهدمها وتسيء اليها فما تلك بحرية فكرية وانما هي ، اذا تأملناها عبودية ومذلة . ولذلك ينبغي ان تتحكم في تيار الكتب المترجمة الى لغة الضاد فنختار منها ما ينفعنا وننبذ ما يضرنا .

٣ ـ فارق الموقف الادبي

وهو فارق يفرض نفسه فاذا تجاهلناه ونحن نترجم آثار الغرب كنا نحن الخاسرين . ولقد عانى الادب العربي في السنوات الاخيرة من تعسف الترجمات وتجاهلها لروحية آدابنا ما جعل الفبن يقع على اكتاف الامة العربية كلها .

وأول ما يشكو منه الباحث المتأمل هو الفكرة المغلوطة التي شاعت في الاوساط العربية المثقفة حول الشهرة وطبيعتها . أن طائفة من المترجمين والقراء يحسبون أن كل ما هو مشهور في الغرب قابل لانيكون عالميا ومن ثم فلا بد أن ينال الشهرة عينها في الوطن العربي . والواضح أن هذه الفكرة تتجاهل الفروق بين الشعوب ، بينما تبقى تلك الفروق تتحكم في شهرة المفكرين . والواقع ان الاديب انما يشتهر في أحد الاوساط بسبب ثلاثة مقومات يضمنها ادبه للقراء في ذلك الوسط :

(اولها) ان ادبه يعبر عن الحياة الاجتماعية التي يحياها ذلك الوسط مثال ذلك أن مسرحيات بيراندييللو تقدم اشخاصا ذوي آداب واراء أوربية بحيث تجري اجتماعاتهم واحاديثهم وفقا لتقاليد المجتمع الاوربي الحديث . ولذلك يجد الاوربي لذة في شهود تلك المسرحيات .

و (ثاني) مقومات الشهرة أن الاديب يعبر عن متوسط المستوى الفكري العام للامة . مثال ذلك ان الاداب الغربية المعاصرة مفعمة بالتعقيد الفكري والحيرة الفلسفية والاحساس بضياع الحقيقة على وجه يألفه المتعلم الغربي الحديث بكثرة ما قرأ من امثاله وشهد على المسرح منذ عشرات السنين . وليس من الممكن أن يتذوق مواطننا العربي هذا المستوى من التعقيد بطفرة ، وانما يصبح ذلك معقولا اذا تدرجنا سنين طويلة في تدريبه على ذلك باطلاعه على النماذج الابسط من آداب الغرب ومهما يكن فان درجة التعقيد في فكر الامة مسألة اجتماعية محضة تتحكم فيها آلاف العوامل . وان من الامم من يؤثر البساطة بفطرتهفلن تقبل التعقيد مهما دربناها .

ومن الطبيعي ان تكون اللغة (ثالث) مقومات الشهرة . فمهما قلنا عن مضمون الادب فانه يبقى ظاهرة لغوية قبل كل شيء . ولعله من البديهيات ان للغات المتباينة اساليب متباينة في الاشتقاق والصياغة وتركيب العبارة ولغات البلاغة . وكلما كان ادب الاديب اكثر عناية بالبلاغة كان نقله الى اللغات الاخرى اصعب من نقل النثر . ويعرف الذين درسوا شيكسبير ان نقله الى العربية يكاد يكون محاولة عقيمة وذلك لكثرة ما في شعره من استعارات وتشبيهات ومجازات وتلوين وبلاغة وسوى ذلك مما لا ينقل من لغة الى لغة . واما ما ترجموا من

ـ التتمة على الصفحة ٧٨ ـ

محاذير في ترجمة الفكر الغربي

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٧ ـ

مسرحية فلا يزيد على نقل « حكايات » ذلك المسرح .

وبعد استذكارنا لهذه العوامل يحق لنا أن نتحفظ فيما نختاره للترجمة الى لغتنا . فليس كل كتاب مشهور لسارتر او سواه يستحق ان يترجم الى لغة الضاد . وقد تستهجن اوساطنا مسرحية مشهورة لبرناردشو او رواية لجيمس جويس ويكون ذلك منها دليلا على قوة شخصيتها وأصالة ذهنها . ولن يكون الحكم علينا بانحطاط المستوى، او فساد الذوق في هذه الحالة الا حكما من وجهة نظر غير عربية . و « الذوق » و « المستوى » ليستا كلمتين عامتين وانما هما معنيان نسبيان تتحكم فيهما ظروف الامم وحاجاتها .

ولهذه الاسباب كلها يدهشنا أن نجد ادب طائفة من كتابنا يغص باسماء الغربيين مثل كوكول وبالزاك وولتر بيتر وبول جيرالدي وكان هؤلاء الكتاب الافاضل يفترضون ان الاعلام الغربية تستثير الذاكرة العربية كما تستثيرها اسماء عنترة والمتنبي وابهاء زهير .. والامر بعيد عن ذلك . واننا لنخشى ان في ترديد الاعلام الاجنبية عبر رواياتنا وابحاثنا لونا من التعالي على المستوى العربي . ولذلك نود لو كف مثقفونا عن حشد الاعلام الغربية في انتاجهم ، لا لاننا نريد ان نبقي قراءنا العرب في جهلهم لهذه الاعلام وما وراءها من ثقافات ، وانما لاننا لا نؤمن بان هذا هو الاسلوب في تقديم الشهرة الاجنبية الى الذهن العربي . ولسوف نعرض بعض اقتراحاتنا فيما بعد .

ولعل الوجه الاخطر من اوجه نقل الشهرة نقلا ارتجاليا من الغرب الينا هو نقل الآراء . فكأن شهرة الاديب الغربي تبرر للفرد العربي ان يعتنق آراءه الاخلاقية والاجتماعية جميعا . وقد لاحظنا ان طائفة من كتابنا العرب يتبنون آراء الغرب المتشائمة اللاأخلاقية فينقلون في ادبهم معالم من الجو المظلم الخانق الذي تتصف به آداب اوربا المعاصرة ذلك على الرغم من الاختلاف الواضح بين ظروفنا المبشرة في الوطن العربي وظروف الغرب الذي بات يتحلل يوما بعد يوم وتسير روحيته للانهيار . وما هذا المسلك من ادبائنا هؤلاء الا نقلا متعسفا لشهرة كتاب غربيين لا جذور لنفسياتهم في الارض العربية .

ويدخل في هذا الباب ايضا ما دأب عليه جماعة من النقاد العرب في السنوات الاخيرة من نقل الاحكام الادبية التي يصدرها نقاد الغرب الى عالمنا دونما تمحيص او تمييز . فاذا ابدى ايليوت او امبسن او ريتشرد او فركسن رأيا ادبيا ، حسب نقادنا ان ذلك الرأي ينطبق بالضرورة على أدبنا ، ومن ثم فهم يطبقونه على الادب العربي فورا ، وتكاد حماسة هؤلاء النقاد العرب ـ ومنهم نقاد مبدعون ذوو أذهان حرة ـ تجعل مقالاتهم تغص بالاعلام الاجنبية والاصطلاحات الدخيلة على آدابنا . وقد يكون مصدر هذه الظاهرة اعجابهم المفرط بالنقد الاوربي وانبهارهم بنظرياته . ونحن نقر ذلك ونشاركهم اعجابهم، لا بل انني شخصيا تتلمذت على طائفة من كبار نقاد الغرب في دراستي للماجستير مثل الاستاذ فرانسز فركسن وآلن تيت وريتشرد بلاكمر ، فانا اكن لهم الاعجاب والتقدير . غير ان هذا الاعجاب لا يبرر لنا ان نتعسف في تحكيم آرائهم في ادبنا المحلي لان تراثنا يختلف أختلافا كبيرا عن تراث الغرب واما ما يصح ان نتعلمه من النقد الغربي فهو سعة الذهن ، واسلوب البحث وموضوعية الاحكام واصالة الرأي ،وقوة الاستنباط . والحق أن ادبنا العربي ينبغي ان يعطينا نظريات في النقد تخالف نظريات النقد الغربي سينتهي بنا الى محذورين :

١ ـ التعسف في تطبيق قوانين اجنبية على ادب عربي له تاريخه ومزاجه ولغته واسلوبه .

٢ ـ اهمال جوانب مشكلة خاصة بادابنا مما لا تتناوله كتب النقد في اوربا واميركا لان مشاكلنا الادبية غير معروفة في آدابهم .

مثال : نحن والرومانسية .

نحب ان نورد مثالا لما يوقعنا فيه نقل الاحكام الغربية الى عالمنا الادبي . يحكم النقاد المعاصرون في الغرب بان « الرومانسية » لون ادبي عميق لا يلائم عصرنا . وقد بلغ من ازدرائهم لها ان باتوا يستعملون لفظ « رومانتيكي » في نعت من ينتقصونه من الشعراء . وقد نقل فريق من الادباء العرب هذا الحكم الى عالم النقد عندنا فصار الشعراء اليافعون يتنافلون بينهم ازدراء « الرومانسية » وكأنها سبة يعير بها الشاعر . وكان بديهيا أن يصحب ازدراءهم هذا لما يزدريه الغربيون ، اعجابهم بما يعجب به أولئك النقاد ، فانتشرت في الشعر الجديد عندنا الروح الغربية المعاصرة وقوامها التعقيد واليأس وتناقض التصور وازدراء المجتمع

اما من وجهة النظر العربية فان « الرومانسية » ينبغي أن تكون مستحسنة في الشعر ، لان الغرب انما سئمها بعد ان شاعت قرنا من الزمان تقريبا حتى لم تعد تؤدي غرضا . اما نحن فلم نستعملها الا لمحة في أدب جبران خليل جبران وبعض من عاصروه مثل نقولا يوسف وطائفة من الشعراء . والحق اننا لم نعرف الرومانسية ، فكم لها من اجواء وكم فيها مما لم نتذوق ، وسنمر عليه مرورا عاجلا في الفقرات التالية :

١ ـ تدعو الرومانسية دعوة شديدة الى الروح الفردية المستقلة ، والنظرة الذاتية التي تنبثق عن شخصية الشاعر ، وهذا يلائمنا لاننا نحب ان يتحرر الشاعر من سطوة القبيلة او العشيرة او العائلة . فكلما كان الشاعر ذاتيا كان ذلك انفع لمجتمعنا حيث نحتاج الى ان ننمي الروح الخلاقة ذات الفكر المتفرد .

ويتفرع من هذا ايمان الرومانسية بتمرد الفرد على الاوضاع الفاسدة التي تحيط به ، لانها في جوهرها دعوة الى الايمان بكل ما هو جميل وعظيم واخلاقي . ومن ثم فهي تمجد البطولة .

٢ ـ تدعو الرومانسية الى احياء الاداب القديمة وتمجيد التاريخ القومي بالقاء نظرة حديثة عليه فيها فردية الشاعر ونظرته الذاتية . وما اظننا نحتاج اليوم شيئا كما نحتاج هذا . والرومانسية في ذلك بعكس الفلسفات الوجودية والعدمية المعاصرة لان هذه الاتجاهات الجديدة تحتقر الايمان بالمجتمع وتهزأ بالوطنية والقومية وتسخر من المثل .

٣ ـ تمجد الرومانسية العواطف الحية الخصبة . والعاطفية فيها تكاد ترادف الانسانية . واما ما في بعض الرومانسية من كآبة وحب للكآبة فليس ذلك ملازما لها . واللمسة العاطفية ضرورية للشعر العربي والروح العربية ، لان الصبغة العامة للفكر الغربي عبر عصوره كانت صفة ذهنية لا عاطفية ، ولذلك شاعت الحكمة في الشعر وشاع السجع والبديع وعرف التعمل ، فكل ذلك من عمل الفكر لا العاطفة ، ومن ثم فنحن حين نتخذ الرومانسية موقفا انما ندخل على ما ألفناه تغييرا ونوسع الحياة العربية في اتجاه جديد .

٤ ـ تؤمن الرومانسية بحيوية اللغات الانسانية وقدرتها على النمو والتجدد ، وقد عرف الرومانتيكيون بالجرأة في صياغة الصور والتشبيهات والاستعارات . ونحن في الشعر العربي نحتاج الى ذلك على ان يتم في حدود الاطار العام للنحو والبلاغة .

٥ ـ من ملامح الرومانسية في الشعر صفة الغنائية والموسيقى العالية الرنين وهذه الغنائية هي نفسها تجديد بالنسبة لشعرنا الذي اتصف غالبا بالحكمة والصياغة اللفظية المحكمة والايجاز الشديد وشيء من النثرية ترد هنا وهناك فيه . يضاف الى ذلك ان الموسيقية تضمن للشعر اليوم ما يتوق اليه من استثارة العواطف القومية في الجماهير الكبيرة ، ولذلك نخسر خسارة كبيرة حين نتخلى عن الرومانتيكية ونعتنق اتجاهات ايليوت أو ياوند في الشعر . لان هؤلاء المعاصرين في الغرب يزدرون العاطفية والوضوح والموسيقى ازدراء ملحوظا ولعل معهم الحق في ان يزدروا ما يشاءون ما دام ذلك لا يضر اوطانهم ولا يمس قضاياهم القومية . اما نحن فان تقليدنا لهم في هذا الازدراء يسيء الينا ويعرقل تحررنا الاجتماعي . واننا لنكون ضعفاء الرأي لو تخلينا عما نحتاج اليه لمجرد أن نقاد اوربا يستهجنونه . فنحن في ذلك اشبه بمريض يتوقف شفاؤه على شرب الحليب ، ومع ذلك يقاطع

الحليب لان جاره السليم يكرهه . ان لنا ظروفنا وحاجاتنا فما لنا وللغرب ؟ وليقاطعوا الرومانسية ما شاءوا ، ... لماذا نقاطعها نحن وهي تضمن مصلحتنا ؟

المشكلة وحلها

والان بعد أن استعرضنا المحاذير في تقبلنا للادب الغربي على علاته ، يصح أن نتساءل عن دواء هذه العلة . فماذا ينبغي لنا ان نفعل أنستغني عن الفكر الغربي ونسد دونه ابوابنا ؟ أم الاحسن ان نتحاشى مزالقه بوسائل نتخذها ؟ ولا اظننا سنختلف في ان الاستغناء عنه غير ممكن ولا مقبول ، فهو غني جميل فيه خير كثير ونحن نخسر باطراحنا له خسارة كبيرة . واذن فلا يبقى لنا الا ان نتخذ لانفسنا وسائل حماية تقينا ما في هذا الادب الوافد من شرور لتصفو لنا مزاياه وفوائده .

والواقع ان هناك طرقا كثيرة تتحاشى بها الامم ان تفقد شخصيتها في غمار ما تترجمه من آداب الامم الاخرى . ولن نذهب بعيدا في التماس هذه الطرق ، فان تاريخنا العربي يعطينا درسا قيما نستفيد منه . فقد جابهت الامة العربية عبر تاريخها عصر ترجمة مشهور هو عصر المأمون وما بعده . وما زال في وسعنا أن نتابع حطى أجدادنا العظام في هذا السبيل . ولسوف نجد ان قانونهم الاول كان الانتقاء : كانوا يقلبون آثار الامم المتحضرة الاخرى وينتقون منها ما يلائم الحاجة العربية والظروف القائمة . وهكذا اقبلوا على ترجمة الفلسفة اليونانية في تعطش ولهفة ولكنهم حذفوا منها كل ما يتعلق بالشرك وتعدد الالهة . وتراهم يترجمون عنهم الرياضيات والمنطق ، غير أنهم تركوا المسرح الاغريقي فلم يرد في سجلاتهم ذكر سوفوكليس ويوربديس وارستوفان على شهرتهم في الفكر الاغريقي . وكان الاساس الذي يركزون اليه هو مصلحة الامة العربية ، لا مقاييس الشهرة في اوربا . ولا نجدهم قد قلقوا مما يمكن أن يقوله عنهم الغربيون . فلقد كانوا افراد امة عظيمة تثق بنفسها وبمواهبها وانتاجها ، فمقاييسها الشخصية هي المقاييس ومصلحتها العربية فوق كل مصلحة .

واذن فلم لا يكون هذا هو قانوننا اليوم ايضا ؟ لماذا نترجم كل ما هو مشهور في اوربا دون نظر الى مقاييسنا واحتياجاتنا ؟ ان علينا ان نخضع كل ما نترجمه عن الغرب لعملية تشبه « التعريب » على نحو ما فعل اجدادنا . ولسنا نقصد بالتعريب ما يقصد به اليوم من تحريف في اللغة والافكار على هوى المترجم ، وانما نريد أن يصبغ الاثر المترجم بالروح العربية ، كما صبغ افلاطون وارسطو من قبل . فما اوضح الفرق بين أفلاطون كما عرفه الفكر العربي وافلاطون الاغريقي . ان القارىء يكاد يحس احيانا انهما فيلسوفان لا فيلسوف واحد . ولم ينشأ ذلك عن تحريف انزله العرب به ، وانما ينتج من ان المترجمين العرب قرأوه قراءة عربية الطبيعة متأثرة بالتراث القومي والذهن اللغوي للامة ، وقد توسعوا في الجوانب التي تهمهم من افلاطون فوقفوا عندها ونبذوا ما عداها ، وبذلك اصبح افلاطون عربيا على وجه ما ، ومن ابسط صور هذا انهم قالوا في تسميته « افلاطون » فقلبوا التاء طاء . وكانت لهم شبه قواعد في نقل الاعلام وتعريبها بحيث يستسيغها اللسان العربي .

والواقع ان الامم القوية الشخصية لا تتقبل شيئا يخالف تكوينها ومزاجها ، وانما تهضم ما تأخذ وتعيد بناءه وبذلك تترك عليه طابعها . واما ما نراه اليوم من اسلوبنا في ترك اذهاننا نهبة للفلسفات الوافدة فهو ولا شك مظهر من مظاهر السلبية التي صارت اليها الامة العربية . ولولا هذه السلبية لم تكن مستعمرين .

يضاف الى ذلك ان اسلافنا العظام لم يكتفوا بالتعريب وانما قدموا الترجمات للقراء العرب محفوفة بالمواشي والتعليقات المجزلة بحيث يلوح وكأنهم كانوا يمتحنون الاراء الوافدة على محك الذهن العربي . وكانوا يضيفون الى الاصل الكثير من عندهم يجعلونه في مقدمة الكتاب فكان القارىء العربي يقرأ الترجمة ويقرأ بعدها رأي المفكرين فيها . وكان المفكرون بذلك يوجهون الامة كلها . وهذا الاسلوب في الترجمة يجعل الاصل الغربي أغنى . ونحن على يقين من ان ت.س. ايليوت ، وجن بول سارتر وسواهما يكتسبون ابعادا جديدة من الخصوبة والايحاء حين تمر على اثارهم آلروح العربية القوية الشخصية الواثقة بذاتها ، واذ ذاك يكون عطاؤهم لامتنا اعمق واغزر .

ومن الوسائل الحديثة التي نستطيع أن نتخذها لننجو من مزالق الفكر المترجم الا نقدم المترجمات الا وهي مسبوقة بمقدمات ضافية تكتبها اقلام عربية رصينة متمكنة من الادب العربي تمكنها من الادب الغربي . ويكون هدف هذه المقدمات أن تشرح للقارىء العربي معاني هذا الادب الوافد شرحا وافيا يجعله يتذوقه تذوقا حقا ، كما انها تشرح للقارىء صلة هذا الادب بحياة الغرب وتيارات الفكر فيه . ويأتي بعد ذلك جانب من المقدمة اخطر واهم وهو دراسة آلاثر الغربي من وجهة النظر العربية ، فاذا كان فيه خروج على تقاليدنا الاجتماعية او الادبية وقفت عنده وناقشته وفندته واثبتت بازائه المفهوم العربي على أساس نظرتنا القومية الحديثة بكل ما فيها من تقدمية وتحرر فكري . واذا وجدت اللغة في الاصل تخالف اتجاهات لغتنا درست ذلك وبينت ما فيه من امكانيات قد نستطيع استخدامها في لغتنا اذا ما رضيها الجمهور المثقف العام . وبمثل هذه المقدمات يغتني الاثر الادبي ، ويكتسب قارئنا ثقافة واسعة جديدة فضلا عن اعتنائه بالاستقلال الفكري والثقة بالنفس .

واما ان تقدم آداب الغرب بلا مقدمات فان ذلك يبلبل قراءنا ويزيدهم جهلا بالفكر الوافد ، لا بل انه قد يسلم أذهان بعض القراء الى الغرور والسطحية لانه يساعد القارىء على حفظ الاعلام العربية دون فهم . وتكاد هذه الظاهرة تكون ملحوظة عند طائفة من ادبائنا الناشئين .

ولا بد لنا من أن نقول كلمة عن اللغة . فان الترجمة العربية الجيدة هي التي تصوغ الاثر الغربي بلغة تحافظ على اساليبنا العربية من بلاغة وقواعد وتراكيب . وذلك على شرط سلامة الجو في الاثر المترجم . والحق ان نقل اجواء الادب من لغة الى لغة لا يقتضي اطلاقا ان نستعمل اصطلاحات اللغة الاصلية وأساليبها . ولذلك فان من الخطأ ان يقع المترجمون في ترجمات حرفية : ترجم احدهم هذه العبارة The Reason Why فجعلها كما يلي « السبب لماذا » وكانت عنوانا لكتاب ديني . وما من شيء يقتل الاثار الادبية مثل هذه الحرفية التي شاعت لدى طائفة من المترجمين . وما الحرفية في الواقع الا استسلام المترجم الى ذهن المترجَم عنه استسلاما اعمى . فهي اذا تأملناها لا تسيء الى اللغة العربية وحدها ، وانما تشوه فوق ذلك جو الادب المترجم افظع تشويه . فكأنها تسد باب الذهن العربي بازائه . وبذلك نخسر الجهد والوقت وفرصة تستفيد فيها الامة العربية من آداب الامم الاخرى .

جامعة البصرة — نازك الملائكة